

أثر التصوف السني في إقامة الحياة الصبية

الدرس
17

أهداف الدرس

1. أن أتعرف مفهوم الحياة الطيبة.
2. أن أتبين علاقة التصوف السني بالحياة الطيبة.
3. أن أتمثل في سلوكي ما يحقق الحياة الطيبة في حياتي.

تمهيد

الحياة الطيبة وَعْدٌ وَعَدَ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ نَشَىٰ
وَهُوَ مُؤْمِرٌ فَلْيُتَحَيِّئِنَّ، وَحَيَاةٌ كَصَيِّبَةٍ﴾ [النحل 97] فوعد من آمن وعمل عملاً صالحاً بالحياة
الطيبة، ودلهم على وسائل تحصيلها في كتابه، وأرشد إليها النبي ﷺ بأقواله وأفعاله، وهي حياة
يذوق طعمها، ويجد حقيقتها من حقق شروطها.

فما هي الحياة الطيبة؟ وما أثر التصوف السني في تحقيقها؟ وما وسائل تحصيلها؟

نص الانطلاق

قال الشيخ زروق -رحمه الله-: في بيان ما ينبغي أن يلتزمه الصوفي الفقير «أما لوازمه
في نفسه فهي أربعة:

أولها: لزوم الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال، حتى يصير كله صدقاً ظاهراً
وباطناً، فلا تبقى له همة ولا إرادة ولا عزيمة ولا قول ولا طريقة ولا حقيقة إلا دخلها من
الصدق ما يحتاج إليه فيها، فيقلده الحق تعالى لذلك سيفَ الجلال والهيبة والتعظيم، كما أشارت
إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فِي مَفْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 55] وقوله
تعالى: ﴿أَنَّا لَنَحْمُ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ...﴾ [يونس: 2].

الثاني: الانحياش إليه تعالى في جميع الأمور، من عوارض وأغراض وأسباب وأعراض ومحن وأمراض، بل جميع ما يحتاج إليه دفعا وجلبا مما قل وجل، وهو معنى قولنا «حسبنا الله» أي: اكتفينا به عن كل مطلوب سواه بكل حال.

وثمرته الظفر بالمراد، قال الله تعالى في حق الذين قالوا: ﴿مَسْبِنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ⁽¹⁷³⁾ **قَانَفَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلِ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** [آل عمران 172، 173] فأعرف ذلك، وتأمله حقه تجد الكنز الأعظم، والإكسير الأكبر، والمسك الأذفر، والعنبر الأشهب في بابه.

الثالث: الرضى عن الله في جميع الحالات، قايما بحق الأمر في التكليف، وبحق القهر في التعريف، وثمرته الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ تَكَرَّرَ أَثَرُهَا وَهُوَ مُؤْمِرٌ فَلْيُتَحَيَّئِنَّ، حَيَوَاتُهُمْ حَيَاتُهُمْ﴾ [النحل: 97]. قال عبد الواحد بن زيد رضي الله عنه: الرضى باب الله الأعظم، ومستراح العابدين، وجنة الدنيا». [عدة المريد الصادق، ص 200].

الفهم

استخلاص المضامين:

- أستخلص من النص بعض ما تحصل به الحياة الطيبة.

الشرح:

- الانحياش إليه: الفرار إليه.

- الرضا: سكون القلب تحت جريان الحكم، وقيل: سرور القلب بمرّ القضاء.

التحليل

أولا: حقيقة الحياة الطيبة

ذكر في مفهوم الحياة الطيبة معانٍ عدة، منها «الحياة مؤمنا بالله عاملا بطاعته...» وقيل: السعادة، وقيل: الحياة في الجنة، وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: الحياة الطيبة: القناعة، وذلك أن من قنعه الله بما قسم له من رزق لم يكثر للدنيا تعبُهُ، ولم يعظم فيها نصبُهُ ولم يتكدر فيها عيشه باتباعه بغية ما فاتته منها وحرصه على ما لعله لا يدركه فيها...» [جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، 17/290 بتصرف] وقيل: «الحياة الطيبة في الدنيا هي الرزق الحلال الطيب. وقيل: عبادة الله

مع أكل الحلال ، وقيل: القناعة ، وقيل: رزق يوم بيوم». [مفاتيح الغيب، للرازي، بتصرف، 462/9].
وقيل «الحياة الطيبة: ما يكون مع المحبوب» [لطائف الإشارات، للقشيري، 320/2].

والناظر فيما قيل في الحياة الطيبة قد يظن أنه لا بد من قصرها على الحياة الطيبة في الدنيا أو في الآخرة، وهو غير صحيح؛ إذ لا مانع من الجمع بينهما، فهناك حياة طيبة في الدنيا، كما أن هناك حياة طيبة في الآخرة، والمفلح هو من جمعهما، فكما أن هناك سعادة في الدنيا وسعادة في الآخرة، فكذلك الحياة الطيبة، قال الشيخ ابن عجيبة رحمه الله: «السعادة على قسمين: سعادة الظاهر، وسعادة الباطن. والشقاوة كذلك. أما سعادة الظاهر ففي الدنيا بالراحة من التعب، وفي الآخرة بالنجاة من العذاب. وأما سعادة الباطن ففي الدنيا براحة القلب من كد الهموم والأحزان، باليقين والاطمئنان، في حضرة الشهود والعيان، وفي الآخرة بدوام النظر في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وشقاوة الظاهر باتصال الكد والتعب، وشقاوة الباطن بالبعد عن الله، واقتراقه عن حضرة مولاه» [البحر المديد، 599/2 بتصرف]. قال القاضي أبو بكر بن العربي المعافري - رحمه الله -: «الحياة الطيبة في الدنيا بلزوم الطاعات وفي الآخرة بعدم الآفات» [عارضه الأحوذى، 34/12].

ثانياً: أثر التصوف السني في تحقيق الحياة الطيبة

إن ما في التصوف من مسائل النفوس والقلوب والأرواح غايتها تحقيق الرضا وإسعاد النفس، والتنعم بلذة الوصل والتقرب إلى الله تعالى في الدنيا ثم مجاورته في الآخرة «وفضيلة الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة؛ إذ لا مقصود سوى السعادة، ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه؛ فكل ما أعان عليه فله فضيلة، وفضيلته بقدر غايته، وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها» [إحياء علوم الدين، 160/4].

وقد كان أحد العارفين يقول: «إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: لو أن أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب» [مدارج السالكين، لابن القيم (259/3)]. وأطيب ما في هذه الدنيا محبة الله، وذكره، وطاعته، والأنس به، والشوق إلى لقائه، ولا يجد حلاوة هذه الحياة إلا من ذاقها «ولا سعادة لأحد إلا بالعلم والمعرفة، وبعض السعادات أشرف من بعض، كما أنه لا غنى إلا بالمال؛ فصاحب

الدرهم غني، وصاحب الخزائن المُتَرَّعة غني، وتفاوت درجات السعداء بحسب تفاوت المعرفة والإيمان، كما تتفاوت درجات الأغنياء بحسب قلة المال وكثرتهم؛ فالمعارف أنوار، ولا يسعى المؤمنون إلى لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم، قال الله تعالى ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بِنُورِ اللَّهِ وَيَبْهَتُ لَهَا أَضْوَائُهُمْ﴾ [الحديد: 12] «[إحياء علوم الدين، 22/3]».

ثالثاً: وسائل تحصيل الحياة الطيبة

من الوسائل التي تحقق الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة:

1. **الإيمان**، قال الله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ تَطَوُّلاً وَأَوْفَى بِوَعْدِهِمْ فَلَنَرْزُقَنَّهُمْ مِنْهُ حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [النحل: 97] فأساس الحياة الطيبة وقوامها الإيمان «ومفتاح السعادة التيقظ والفتنة، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة، فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة، ولا نعمة أعظم من الكفر والمعصية ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة» [إحياء علوم الدين، 378/3].

2. **العمل الصالح**، قال الإمام القشيري - رحمه الله - «والعمل الصالح ما يصلح للقبول، والذي يصلح للقبول ما كان على الوجه الذي أمر الله به» [لطائف الإشارات، للقشيري، 320/2]. وما يتحقق به العمل الصالح قربات كثيرة شرعها الله، ومن أعظمها ذكر الله الذي يورث الأنس بالله ومحبة الله؛ فيعيش العبد مطمئناً بالله مطيعاً له في السراء والضراء «فالطاعات غذاء للقلوب والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى، فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط، ولن يتنعم بلقاء الله إلا من مات محباً لله تعالى عارفاً بالله، ولن يحبه إلا من عرفه، ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له» [إحياء علوم الدين، 367/4].

3. **العلم**، ذلك أنه لا عمل إلا بعلم، فالعلم حياة القلب من الجهل، ونور العين من الظلمة، ومشايخ طريقة التصوف يعتبرون من العلم ما هو مقرون بالمعاملة والحال، ويسمونه «المعرفة» والعالم به عارفاً، والمجرد من المعاملة يسمونه عالماً؛ إذ العالم عندهم قائم بنفسه، والعارف قائم بربه، ولا ثمرة للعلم إلا بالعبادة «فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة» [إحياء علوم الدين، 362/4].

4. **تخلية القلب من الشواغل**، بحيث لا تعلق له إلا بالله؛ «لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر؛ فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه، فالقلب هو

المقصود، والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود، ولذلك قال النبي ﷺ: «إن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» [صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه] [إحياء علوم الدين، 367/4]. وقد قيل لبعض الحكماء: ما الذي أرادوا بالخلوة واختيار العزلة؟ فقال: «يستندعون بذلك دوام الفكرة، وتثبت العلوم في قلوبهم، ليحيوا حياة طيبة، ويذوقوا حلاوة المعرفة» [إحياء علوم الدين، 227/2]. قال الشيخ ابن عجيبة -رحمه الله- «الحياة الطيبة إنما تتحقق بكمالها عند أهل التجريد؛ حيث انقطعت عنهم الشواغل في الظاهر، والعلائق في الباطن، فاطمأنت قلوبهم بالله، وسكنت أرواحهم في حضرة الله، وتحققت أسرارهم بشهود الله، فدام سرورهم، واتصل حبورهم بحلاوة معرفة محبوبهم» [البحر المديد، 162/3].

5. القناعة، الحياة الطيبة أساسها القناعة والكفاية مع التوفيق والهداية، ولأهميتها وأثرها جعلها بعضهم هي الحياة الطيبة، وفسرها بها كما سبق، قال الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- «أصل كل خير القناعة بما تيسر من: علم، أو مال، أو عمل، أو حال، ما لم تصحبه معصية، فإن من تتبع الفضائل خرج عن المقصود» [الجامع لجمل من الفوائد والمنافع، للشيخ زروق، ص5]. ويقال: «الحياة الطيبة للأولياء أن لا تكون لهم حاجة، ولا سؤال، ولا أرب، ولا مطالبة، وفرق بين من له إرادة فترفع، وبين من لا إرادة له فلا يريد شيئاً، الأولون قائمون بشرط العبودية، والآخرون معتقون بشرط الحرية» [لطائف الإشارات، للقشيري، 320/2]. قال الإمام القشيري -رحمه الله- «الحياة الطيبة في الدنيا القناعة، والقناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزهد، هذا أول الرضا، وهذا أول الزهد، القناعة ترك التشوف إلى المفقود والاستغناء بالموجود، والقناعة رضا النفس بما قسم لها من الرزق، ويقال: القناعة الاكتفاء بالموجود وزوال الطمع فيما ليس بحاصل» [الرسالة القشيرية، 299/1 بتصرف]. ومهما تصور العبد الحياة الطيبة، فإنه لن يجدها إلا بذوق؛ ذلك أن أمر الحياة الطيبة «لا يعرف بالنطق، وإنما يعرف ذلك بالذوق، فقوم قالوا: إنه حلاوة الطاعة، وقوم قالوا: إنه القناعة، وقوم قالوا إنه الرضا، وقوم قالوا: إنه النجوى، وقوم قالوا: إنه نسيم القرب... والكل صحيح ولكل واحد أهل» [لطائف الإشارات، للقشيري، 320/2].

التقويم

1. أعرف الحياة الطيبة.
2. أبين وسائل تحصيل الحياة الطيبة.
3. أبرز العلاقة بين «القناعة» و«الحياة الطيبة».

الاستثمار

قال أبو حامد الغزالي رحمه الله: «السعادة لا تنال إلا بثلاث وسائل في الدنيا، وهي: الفضائل النفسية؛ كالعلم، وحسن الخلق، والفضائل البدنية؛ كالصحة، والسلامة، والفضائل الخارجة عن البدن؛ كالمال، وسائر الأسباب، وأعلاها: النفسية، ثم البدنية، ثم الخارجة...، ومن عرف هذا الترتيب فقد عرف قدر المال ووجه شرفه...؛ فإذا المال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح، ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة، وهي المقاصد الصادة عن سعادة الآخرة، وتسد سبيل العلم والعمل؛ فهو إذن محمود مذموم، محمود بالإضافة إلى المقصد المحمود، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم؛ فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر» [إحياء علوم الدين، 3/235 بتصرف].

أتأمل النص، وأناقش من يزعم اقتصار السعادة والحياة الطيبة على توفر الوسائل المادية.

الإعداد القبلي

أبحث عن تاريخ التصوف في المجتمع المغربي.